

ملاحم الوجودية في الفلسفة الأوغسطينية

د. محمد على محمد خليفة*

الملخص:

تعد الفلسفة الوجودية من أهم المذاهب والتيارات الفكرية التي برزت في الفكر المعاصر كغيرها من المذاهب الأخرى، غير أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تصل إلى ما وصلت إليه من مكان وشهرة كبيرة دون وجود خلفية سابقة مكنت لوجودها، وأسهمت بشكل أو بآخر في بلورة أفكارها وظهورها على هذا الوجه المتكامل.

ومن أبرز المذاهب الفكرية التي أدت دوراً مهماً في هذا المجال، وتدين إليها الوجودية في ظهورها ووجودها على الساحة الفكرية الفلسفة الوسيطة والتمثلة في أبرز فلاسفتها القديس أوغسطين⁽¹⁾ أول من استعمل مصطلح الفلسفة المسيحية، وقد جاءت فلسفة هذا الفيلسوف صورة مطابقة تماماً للحياة التي عاشها، وتحدث عنها ودونها بكل تفاصيلها في كتابه، الاعترافات والذي قال عنه أنه بمثابة اعترافٍ منه لله تعالى بما اقترافه من ذنوب ومعاصٍ في حياته السابقة. وفي الوقت نفسه كتبه كسيرة ذاتية لحياته تحدث فيه عن تجاربه، ومراحل حياته الفكرية بداية من مرحلة الطفولة والطيش، وصولاً إلى المرحلة الأخيرة من حياته.

أهمية ومشكلة البحث:

لا تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها مجرد سرد وعرض تاريخي لأراء وأفكار أوغسطين بقدر ما تكمن أهميتها بالدرجة الأولى في محاولة استكشاف قضايا وموضوعات مهمة في فلسفته أهمل الباحثون دراستها والخوض فيها سواء كان عن قصد أم عن غير قصد، ومن بين الأمور والقضايا المهمة في فلسفة أوغسطين الجديرة بالدراسة والتي تستدعي الوقوف عندها نزعتة الوجودية القوية المتغلغلة في جميع أفكاره وحياته بشكل عام والتي كان لها الدور الأكبر في وصوله إلى المعرفة اليقينية من خلال ربطه بين فكرة الخطيئة والوجود الإنساني، فالخطيئة مرهونة بالوجود الإنساني الأمر الذي يجعلنا نتساءل معه إلى أي مدى استطاع أوغسطين التأثير على الفلاسفة الذين جاءوا بعده وخصوصاً الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي ربط هو الآخر بين تفكيره ووجوده فيما يعرف بالكوجيتو الديكارتية والفلاسفة الوجوديون المعاصرون الذين تأثروا بأوغسطين بشكل عام، ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسة.

المقدمة:

من المعروف أنّ الفلسفة الوجودية تصنف ضمن أهم المذاهب الفلسفية المعاصرة التي حققت شهرة ومكانة كبيرة بين المذاهب الفلسفية الأخرى غير أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق دون وجود خلفية أو

* عضو هيئة التدريس بكلية الآداب / جامعة سبها

بمعنى أصح قاعدة متينة انطلقت منها الوجودية في بناء أفكارها ووصولها إلى ما وصلت إليه على هذا الوجه المتكامل.

ولو نظرنا إلى الأفكار والمبادئ التي استند عليها الفلاسفة الوجوديون المعاصرون في بناء فلسفتهم وتكوينها والتي أصبحوا على أساسها فلاسفة وجوديين لرأينا، بأنها هي نفس الأفكار التي تناولتها وخاضت فيها الفلسفات السابقة لا سيما الفلسفة اليونانية مروراً بالفلسفة الوسيطة فالحدیثة وصولاً إلى الفلسفة المعاصرة.

وهذه الدراسة ما هي إلا محاولة للوقوف عند حقبة معينة من تاريخ الفكر الفلسفي كان لها الدور الكبير والبارز في ظهور الفلسفة الوجودية المعاصرة ونقصد بها تحديداً مرحلة الفلسفة الوسيطة والمتمثلة في فيلسوفها الشهير أوغسطين الذي عاش حياته بكل ما فيها من تقلبات وقلقل فكرية ومعاناة وقلق بعد رحلة طويلة وشاقة في دروب البحث عن الحقيقة قبل أن يضع أول خطواته على أعتاب المسيحية.

وهذه التجربة التي عاشها أوغسطين، وتحدث عنها في اعترافاته تستحق أن نقف عندها ونخوض في غمارها لنستشف من خلالها مدى علاقة هذا الفيلسوف بالتيار الوجودي المعاصر وإسهاماته البارزة في إرساء الفلسفة الوجودية المعاصرة لا سيما الوجودية المؤمنة.

ولكي نصل إلى الهدف الذي نسعى إليه من خلال دراستنا هذه لا بد لنا من الوقوف عند أهم المحطات والمراحل الفكرية في حياة أوغسطين معتمدين بالدرجة الأولى على كتابه الاعترافات الذي كتبها كسيرة ذاتية لحياته والذي تحدث فيه عن معاناته ورحلته الطويلة الشاقة في البحث عن الحقيقة .

أولاً: مرحلة الدراسة والطيش:

درس أوغسطين في طفولته الأولى الكثير من العلوم و انتقل من مكان إلآخر ومن مدينة إلأخرى طلباً للعلم، ولما بلغ عامه الثاني عشر أرسله أبوه إلى معهد شهير في مدينة مادورا⁽²⁾ حيث أخذ هذا الفتى الطري العود الحاد الذكاء ينهل العلم عن أساتذة تضلعوا من أصوله، وتمرسوا به طويلاً، وأخذ في هذه الفترة يتودد إلأتراب له في المدرسة فسار وراءهم في طريق الشر والفساد فلم يخالفهم رأياً، وأبى أن يتخلف عنهم في مداعبة الإثم والارتداء في أحضان الخطيئة، فكانت هذه الفترة من حياته صعبة وقاسية جداً عليه فكانت مختلطة بمزيج من الألم والمرارة، فقد ظلت محفورة في ذاكرته، ولم يستطع نسيانها حتي عند وصوله إلى بر الأمان وإيمانه بالمسيحية.

وقد سرد لنا أوغسطين في اعترافاته بعضاً من الحكايات المؤلمة التي مر بها في صباه في صحبة نفر من أصحابه التي كانت شاهدة علي إثمه ومعصيته يقول أوغسطين: "أريد أن أتذكر الآن أدناس ماضي ونتاجته في نفسي اللحمية لا لإحيائها بل حباً بك يا إلهي وشغفاً بل أيها الحب حرقني العطش إلى الملدات الجهنمية، ودفعنتي وقاحتني إلى الاستمتاع بشتى أنواعها فتشوه جمالي، وأصبحت قذارة أمام ناظريك"⁽³⁾.

ويقول في موضع خر في اعترافاته: "تجاهلت قيمة عملي وهمت في عملي خجلاً من أن أظهر بين أتباعي أقل سفها منهم، وقد سمعتهم يتباهون بإعمالهم الدنيئة، ويزدادون فخراً كلما ازدادوا فحشاً، أما أنا فقد كنت اقترب الإثم خوفاً من اللوم كنت أظهار بإتيان ما لم آتِه أصلاً خشية أن تكسوني براءتي وطهارتي ثوباً أحط في نظرهم وأحقر مما يلبسون"⁽⁴⁾.

فهذه المرحلة من حياة أوغسطين بحسب ما ذكره في اعترافاته كانت مليئة بالشرور والخطايا ارتكب فيها أوغسطين المعاصي، وانتَهك فيها كافة المحرمات لا لشيء إلا لإرضاء نزواته بتأثير من رفاق السوء الذين كانوا بجانبه وكثيراً ما كانوا يزينون له فعل الشر والخطيئة، وكان غير راضٍ عن أفعاله وتصرفاته لكنه كان يجد نفسه مضطراً دائماً لإرضاء أصحابه وإشباع دافع الفضول داخل نفسه.

فهذه الأفعال التي ارتكبها أوغسطين في حياته الأولى والتمثلة في حياة الفوضى والعبث والانحلال الخلقي ما هي إلا مبدأ من المبادئ التي تأسست عليها الوجودية المعاصرة، وهذا إن دل على شيء إنما هو أكبر دليل على أن أوغسطين يعد من أهم ممثلي الاتجاه الوجودي في العصر الوسيط، ومن أهم الفلاسفة الذين أسهموا في بناء المذهب الوجودي المعاصر بشكل عام.

ثانياً: المرحلة المعرفية (الشكوك العنيفة):

بدأ أوغسطين رحلة البحث عن المعرفة في فترة مبكرة من حياته فانكب على دراسة الأديان والمذاهب الفلسفية في عصره بداية بالكتاب المقدس مروراً بالمانوية⁽⁵⁾ وفلسفة الشكاك، ثم الأفلاطونية المحدثة وأخيراً المسيحية التي ختم بها رحلته واستقر عندها.

1. دراسة الكتاب المقدس:

كان أوغسطين ينتقل في بحثه عن المعرفة من مذهب إلى آخر، وكانت بدايته الأولى كما ذكرنا مع الكتاب المقدس، فبدأ بقراءة الكتاب المقدس وهو في سن التاسعة عشر من عمره فلم يجد فيه ما كان يبحث عنه بسبب أسلوبه الغامض، ووقف أوغسطين موقف السخرية تجاه الكنيسة المسيحية والتي قال عنها بأنها صيدانية وتعاليمها شبيهة في نظره بحكايات وقصص امرأة عجوز، وإضافة إلى هذا قال بأن أفكارها سلطوية وتحد من حرية العقل، وتشل حركته.

وهذا الموقف العدواني الذي وقفه أوغسطين تجاه الكنيسة ليس بالمستغرب منه خصوصاً إذا ما أخذنا في اعتبارنا حياته الأولى، وما كان فيها من لهو وعبث، وكان همه الوحيد إشباع نزواته ضارباً بعرض الحائط كل الأعراف والأسس الأخلاقية والدينية.

غير أن أوغسطين وبمرور الوقت وبسبب حالة الضجر والملل التي كان يعيشها، أصبح يبحث لنفسه عن مخرج يبعده عن حياة اللهو والملذات الحسية، فأصبح يبحث عن كل ما هو عقلي لعله يجد الطمأنينة والسعادة التي حُرِم منها، غير أن تجربته الأولى مع الكتاب المقدس خيبت أمله وزادت من شكوكه ومعاناته، وقد تحدث أوغسطين عن تجربته الأولى مع الكتاب المقدس قائلاً: "عزمت على مطالعة الكتب

المقدسة وهاك ما وجدت فيها ما لا يقوى الكبار على اكتناهاه، ولا الصغار على كشف غوامضه فبذت لي تلك الكتب دون كتب شيشرون⁽⁶⁾، فخامة فاحتقرتها لركاكتها وقصرت على فهم معانيها⁽⁷⁾.

2. دراسة مذهب المانوية:

بعد دراسة أوغسطين للكتاب المقدس انتقل إلى دراسة مذهب المانوية بعد ما تبين له أن المانوية تمتاز عن غيرها من المذاهب الأخرى بنزعتها العقلية القوية وحججها القوية في إقناع خصومها فلم يجد سبيلاً أمامه للخلاص من همومه، ومعاناته سوى الارتقاء في أحضان المانوية، وظل أوغسطين مرتبطاً بالمانوية طوال تسع سنين من عمره، وبمرور الوقت انكشف أمام عينه شيئاً فشيئاً خز عبلاتهم، وترهاتهم، وحججهم الواهية التي خدعوا بها الناس فانقل من موقف المدافع عنهم إلى موقف الخصم والمهاجم وعمل على محاربتهم مستخدماً نفس أسلحتهم، فلم يجدوا من سبيل أمامهم سوى الهروب والتخفي من أمام أعين الناس، يقول أوغسطين في اعترافاته متحدثاً عن تجربته مع المانوية: "طوال تلك السنوات التسع الممتدة بين التاسعة عشر والثامنة والعشرين من عمري كنا فريسة لشهوات مختلفة تقاذفتنا الوسوس والأوهام وهناك جرفنا الكبرياء في تيارها، وفي الحاليتين كنا أفاكين، وكنا نسعى في أثر شعبية رخيصة نجنيها حيناً من تصفيق النظارة لنا وأحياناً من المباريات الشعرية التي اشتركنا فيها"⁽⁸⁾.

3. دراسة مذهب الشكاك:

بعد الرحلة الطويلة التي قام بها أوغسطين وبحثه عن المعرفة واليقين عبر الدين المسيحي والمانوية أصبح الشك واليأس يجد طريقه شيئاً فشيئاً إلى نفس أوغسطين، وأصبح هو المسيطر على حياته وتفكيره وارتاحت نفسه قليلاً بعدما سمع أقوالهم بعدم إمكانية الوصول إلى المعرفة، فالمعرفة من وجهة نظر هؤلاء الشكاك يُستحيل إدراكها بأية وسيلة من الوسائل المعرفية، وأكثر من ذلك أنه لا يوجد في نظرهم حقيقة ثابتة يمكن الوثوق فيها والركون إليها.

حاول أوغسطين أن يقنع نفسه بقبول آراء هؤلاء الشكاك والوقوف عندها فترة من الزمن، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً فنفسه القلقة والمتعطشة دوماً لبلوغ اليقين لم يرق لها الخنوع والاستسلام لكلام الشكاك الذين انخدع بهم شأنهم في هذا شأن المانويين الذين سبقوهم يقول أوغسطين متحدثاً عن خداع الشكاك: "اعتقدت أن الفلاسفة المعروفين بالمحلفين يفوقون حكمة سواهم، إذ يقولون أن الشك بكل شيء واجب والإنسان عاجز عن فهم كل حقيقة، فبدأ لي حينذاك أن تعليمهم الصحيح هو ما كان يعزوه الناس إليهم لأنني كنت أجهل في ذلك الوقت نياتهم الأساسية"⁽⁹⁾.

وبالرغم من حالة الشك القوية التي كانت مسيطرة على تفكير أوغسطين والمدة التي قضاهها صحبة هؤلاء الشكاك إلا أنه لم يذهب معهم بعيداً في شكوكهم فهناك بعض الحقائق والمسلّمات لم يتطرق إليها الشك منها حقائق الرياضيات والمنطق ومسألة وجود الله فهذه الأمور ظلت ثابتة وراسخة ويقينية في نفسه لم يشك فيها حتى وهو في أوج حالات شكوكه⁽¹⁰⁾.

4. دراسته للأفلاطونية المحدثة:

بالرغم من اختلاف أوغسطين مع الشكاك إلا أنه ظل على علاقة قوية معهم، فقد أعطاه الشك دافعاً قوياً وفتح الطريق أمام عينه ليواصل البحث عن المعرفة اليقينية، وكان في هذه الفترة منشغلاً إزاء بعض الأمور والمشاكل التي لم يكن يجد مبرراً لوجودها مثل مشكلة وجود الشر والإرادة الخيرة والشريرة فحاول البحث في هذه الأمور، وكان دائماً يتساءل عن سبب وجود الشر في العالم وهل وجد مع وجود الإنسان أو أنه موجود قبل وجود الإنسان.

هذه الأسئلة وغيرها كانت مصدر قلق دائم لأوغسطين، وبينما هو منشغل في البحث عن إجابات لأسئلته هذه وقعت بين يديه بعض من كتب الأفلاطونية المحدثة، ووقف عند نظرة الأفلاطونية وتفسيرها لمسألة وجود الشر في العالم والتي رأت بأن الشر ليس شيئاً أو جوهرًا مميزاً دائماً إنما هو غياب الخير فكل ما هو موجود هو خير والشر ليس جوهرًا ومن ثم فهو عدم وغير موجود⁽¹¹⁾.

وبعد قراءة أوغسطين لكتابات الأفلاطونية المحدثة وجد فيها الكثير من الأمور المهمة فقد وجد شبه كبير بين كلام الأفلاطونية، وبعض فقرات الكتاب المقدس الذي درسه في بداية حياته، وهذا الأمر جعله يغير بعض الشيء من نظراته العدائية تجاه الكتاب المقدس أوغسطين متحدثاً عن هذا الموضوع: "وفيها قرأت أن لم يكن هذه العبارات ذاتها فما يشبهها تماماً مؤيدة بعدة براهين كتبت أنه في البدء كان الكلمة، والكلمة عند الله، والكلمة هو الله كان في البدء عند الله، كل به كون وبغيره لم يكون شيئاً مما كون فيه كانت الحياة والحياة هي نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه"⁽¹²⁾.

هذه الكلمات التي وجدها أوغسطين في كتب الأفلاطونية، وبعد مقارنتها بما جاء في إنجيل يوحنا أصبح ينظر للمسيحية بمنظور آخر جديد فكانت الأفلاطونية المحدثة هي طريقه لفهم المسيحية وأصبحت المسائل الموجودة في الكتاب المقدس أكثر فهماً واستيعاباً بواسطة الأفلاطونية المحدثة.

ومع هذا كله وبالرغم من إشادة أوغسطين بالأفلاطونية المحدثة إلا أنها كانت هي الأخرى محطّة عابرة في حياته اتخذ منها نقطة عبور له لبلوغ المعرفة اليقينية.

5. دراسته للديانة المسيحية:

بعد رحلة طويلة قضاها أوغسطين في شعاب البحث عن الحقيقة يحط ترحاله أخيراً عند المسيحية التي كان قد درسها ووقف عندها في أول حياته المعرفية غير أنه شتان بين الوضعين في المرة الأولى وصفها بأنها سلطوية ومبهمّة وغير ذات جدوى، وفي المرة الثانية اختلفت نظراته للكنيسة عما كانت عليه فوجد فيها أفكاراً تستحق الدراسة والوقوف عندها، وهذا الموقف المتناقض والمتذبذب من جانبه تجاه الكنيسة راجع بالدرجة الأولى لبفعل تأثير الأفلاطونية المحدثة عليه فدراسته لهذه الفلسفة هي من جعلته يغير نظراته السلبية تجاه الكنيسة فقد أزال التالافلاطونية على حد قوله الكثير من اللبس والغموض في بعض كلمات وجمل الكتاب المقدس.

إضافة إلى هذا التقاؤه بالقدّيس أمبروز⁽¹³⁾ هذا الرجل الذي أدى دوراً مهماً في تغيير مجري حياة أوغسطين فكان هذا الرجل محط إعجاب واحترام أوغسطين، وكثيراً ما أشاد به في مؤلفاته وأعجب بدفاعه وحججه القوية ضد خصومه من أصحاب البدع والضلالات الذين كانوا يهاجمون المسيحية، وفي هذه الفترة من حياته حرص أوغسطين كل الحرص على توطيد علاقته بالقدّيس أمبروز والاستفادة منه في فهم الكثير من أسرار وخبايا الكنيسة المسيحية أملاً منه في يصل إلى اليقين المطلق.

ومع هذا فقد بقيت صداقته وملازمته لهذا الرجل لم تتخط طور الإعجاب دون أن تفضى به إلى بلوغ اليقين الذي كان ينشده طول حياته لقد بحث أوغسطين عن المعرفة واليقين عبر كل المذاهب وبكل الوسائل المعرفية سواء كانت حسية أم عقلية لكن دون جدوى.

وصل أوغسطين إلى حالة لا يحسد عليها من الحزن والكآبة والضياع والتشتت الفكري لدرجة أنه أدرك معها أنه لا مخرج له أبداً من حالته وسيبقي دائماً أسيراً لشكوكه وأوهامه، وقد وصف حالته هذه في كتابه الاعترافات قائلاً: " إذ كنت بكليتي غائصاً في بحر من التفكير والتأمل تجلت أمام ناظري قلبي مصائبى وبلاياي بأسرها محملة عاصفة مثقلة بدموع عيني"⁽¹⁴⁾.

ومع هذا كله فقد وجد أوغسطين الحقيقة التي طالما بحث عنها وجدها في المسيحية فكيف اهتدى أوغسطين إلى المسيحية، وماهي الوسيلة التي استخدمها في الوصول إلى هدفه وبلوغه مرحلة اليقين؟

روى لنا أوغسطين في اعترافاته قصة اهتدائه للمسيحية وبلوغه المعرفة اليقينية، حيث يقول: " استلقيت تحت شجرة تين ففاضت غزيرة عيني...، بكيت بكاء مرّاً بقلب منسحق فطرق أذني بغتة صوت خارج من بيت الجيران خيل إلى أنه صوت صبي أو صبية يغني مردداً: خذ واقرأ فأمتعق⁽¹⁵⁾ لوني، وأصغيت بكليتي علني اتبين المصدر، ومنثم حبست دموعي ونهضت لأنني رأيت في ذلك الصوت نداء سماوياً يدعوني إلى أن افتح كتاب الرسول، واقرأ أول فصل يقع عليه نظري...، فأخذته وفتحته وقرأت سرّاً في أول فصل منه وقع نظري عليه: لا تعيشوا بالفسوق والسكر والمضاجع التي يستحى منها، ولا بالخصام والحسد بل ألبسوا الرب يسوع ولا تهتموا بأجسادكم لقضاء شهواتها اكتفيت بهذا المقدار ، وما أن انتهيت من قراءة هذه الأسطر حتى أشرق في قلبي شعاع طمأنينة بدد ما كان مستولياً على من دياجير الأوهام"⁽¹⁶⁾.

فهذه الحادثة التي تحدث عنها أوغسطين تعديناً كبيراً وحاسماً في حياته وجد على حد قوله الحقيقة في المسيحية بعد سنين طويلة من عمره ورحلة شاقة من الانتظار والمعاناة والألم.

وقد اعتبر أوغسطين قصة اهتدائه للمسيحية نعمة إلهية جاءت من الله تحصل عليها بعد صبر ورحلة طويلة قضاها في دروب البحث عن الحقيقة وبوصول أوغسطين إلى المعرفة اليقينية التي وجدها على حد قوله في المسيحية نصل إلى المرحلة الأخيرة من حياته، وهي المرحلة الكهنوتية وهي امتداد أو بمعنى أصح ترسيخ لديانته المسيحية، فبعد إيمانه بالمسيحية كان لازماً عليه أن يبدأ مرحلة جديدة من حياته وهي

مرحلة نشر الدعوة والدفاع عنها ضد من وصفهم بأعداء المسيحية من الوثنيين وأصحاب البدع والضلالات.

ثالثاً: المرحلة الكهنوتية الخاصة:

تختلف هذه المرحلة عن غيرها من المراحل الأخرى في حياة أوغسطين فبعد القلاقل والصراعات النفسية والشكوك العنيفة التي شهدتها حياته السابقة فإن هذه المرحلة شهدت حالة تامة من الهدوء والاستقرار النفسي فبوصول أوغسطين إلى المسيحية يكون بذلك قد أسدل الستار نهائياً عن مرحلة مظلمة من حياته إلى غير رجعة، ولعل الولوج والخوض في تفاصيل هذه المرحلة من حياته قد لا يكون ذا جدوى بالنسبة لنا على الأقل فيما يخص موضوع بحثنا هذا فما يهمنا بالدرجة الأولى من خلال استعراض المراحل والتحويلات الفكرية في حياة أوغسطين الوقوف عند الأحداث المهمة في حياته السابقة وما صاحبها من قلاقل وصراعات نفسية حادة وبيان مدى حالة الضياع والقلق والخوف والحزن التي عاشها هذا المفكر قبل وصوله إلى المسيحية.

وهذه الأمور التي تعرض لها أوغسطين وكابدها طيلة حياته الماضية تشكل في مجملها أهم المقومات والمبادئ التي قامت، وتأسست عليها الفلسفة الوجودية المعاصرة.

ومع هذا لا بد من الوقوف ولو بشكل سريع عند هذه المرحلة النهائية من حياة أوغسطين والتي كما أسلفنا قد سخرها للدفاع عن ديانتها المسيحية ضد خصومها، وقد شهدت هذه المرحلة أوج نشاطه وحماسه الشديد في الدفاع عن دينه بكل شجاعة وإخلاص وكان همه الوحيد طوال هذه الفترة كيفية تحقيق الخلاص لشعبه وتخليصه من الإثم والخطيئة⁽¹⁷⁾.

ومن أقوى الأحداث التي واجهت أوغسطين في هذه المرحلة من حياته حادثة سقوط روما فيبدأ القوط عام 410 بعدما استغل الوثنيون هذه الحادثة في شن هجومهم على المسيحية وإرجاعهم سبب سقوط روما في يد القوط إلى ترك الناس ديانتهم القديمة وإيمانهم بالمسيحية فهذا الأمر أخرج أوغسطين عن صمته وقرر مجابتهم والوقوف في وجههم والتصدي لمحاولاتهم في تشويه المسيحية في مؤلفه وكتابه الضخم مدينة الله⁽¹⁸⁾.

وقد عاش أوغسطين في أواخر حياته معيشة المتصوفين والزهاد بعد أن تبرع بكل أمواله وممتلكاته لصالح الفقراء ولم يحتفظ لنفسه إلا ببيت صغير خصصه للعبادة والصلاة.

كانت هذه هي أهم المراحل الفكرية في حياة أوغسطين ابتداء من طفولته المبكرة ونهاية بالمرحلة الكهنوتية ورأينا كيف انتقل فيها هذا المفكر من مذهب إلى آخر بحثاً عن المعرفة واليقين وهذه الرحلة الطويلة التي انتهت به في أحضان المسيحية لم تكن بالرحلة اليسيرة فقد عانى هذا المفكر غاية المعاناة وتخطب في بحر من الظلمات والمعاصي، وارتكب الكثير من المحرمات وعاش فترة من الضياع وعدم الاستقرار ويشاء القدر أخيراً أن يوصله إلى ماكان يبحث عنه بعد عناء وبحث طويل بعد أن جاب

الكثير من المذاهب والتيارات الفكرية المختلفة في عصره حط ترحاله في نهاية المطاف عند المسيحية والتي وصفها بأنها تمثل الحقيقة والسعادة التامة⁽¹⁹⁾.

رابعاً: الخطيئة والوجود:

تعد هذه المسألة من أهم المسائل في فلسفة أوغسطين، وقد تحدث عنها أوغسطين بإسهاب في أغلب مؤلفاته لا سيما الاعترافات.

وقد ربط أوغسطين بين مفهومي الخطيئة والوجود على غرار ما فعل ديكرت من بعده والذي ربط بين التفكير والوجود بعد ما جعل التفكير دليلاً على وجود الإنسان⁽²⁰⁾، وفكرة الخطيئة عند أوغسطين ارتبطت بظهور أول إنسان على الأرض ومن ثم فهي متوارثة من جيل إلى آخر ولا سبيل إلى التحرر منها في رأي أوغسطين إلا من خلال الإيمان بالمسيحية يقول أوغسطين: "الويل لخطايا البشر كلام نطق به الإنسان فرحمته لأنك صنعتها ولم تصنع الخطيئة فيه، لا أحد يخلو من الخطيئة أمام عينك، ولا ابن يوم واحد من يذكرني بخطيئة صباي"⁽²¹⁾.

وفي موضع آخر من الاعترافات يضيف قائلاً: أكل واحد منا سعيد أم ذلك الإنسان الأول وحده الذي ارتكب الخطيئة وبه متناومنه ولدنا في الشقاء"⁽²²⁾.

ما نريد قوله هنا أن أوغسطين يؤكد على حقيقة مهمة بأنه لا وجود للخطيئة من دون وجود الإنسان، فالإنسان هو الذي يخطئ وكل إنسان مسؤول عن أخطائه، وعندما يخطئ الإنسان فإنه دليل تام على وجوده وأن لم يخطئ الإنسان فإنه لا يكون موجوداً ولا يدرك وجوده⁽²³⁾.

وقضية الوجود الإنساني تمثل النقطة الأولى التي انطلق منها أوغسطين في بناء فلسفته، وقد رأينا أوغسطين في اعترافاته الطريقة التي تحدث فيها عن نفسه وعن تجاربه مع الحياة، وتحدث بكل مرارة عن معاناته ورحلته الطويلة عن المعرفة وما صاحبها من شكوك وقلق واضطرابات نفسية عنيفة كادت أن تؤدي به إلى الهلاك والضياع ورأيناه كيف كان حريصاً على أن يقف عند أدق الجزئيات البسيطة التي تعرض لها في حياته باختصار أنها تجربة شخصية عاشها وعانها هذا المفكر واكتشف فيها وجوده وشخصيته ومن ثم فإن حياته جاءت صورة مطابقة تماماً عن فلسفته.

وقد ذكر المفكر على زيعور بأن الأوغسطينية هي تجربة أكثر مما هي نسق أو بناء مقفل ومذهب أنها فلسفة للحياة بشكل عام وأن اعترافاته ليست رحلة روحية فقط، وإنما هي رحلة فكرية وأخلاقية مما يجعله في نهاية المطاف المعلم الحقيقي لفلسفة الوجود والفلسفة الشخصانيين بشكل عام⁽²⁴⁾.

- 1- هو أوراليوس أوغسطين ولد عام 354م في مدينة طاغشت تعرف اليوم بسوق أهراس تقع على الساحل الشرقي من الجزائر وهو أشهر أباء الكنيسة اللاتينية، عاش ثمانين عام من التحول الاجتماعي والقلقل السياسية والكوارث أثناء حصار القوط لمدينته، للمزيد أنظر عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ج1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1984م، ص 247 وما بعدها.
- 2- هي أحد مدن نوميديا الجزائر حالياً تبعد 24 كيلو متر تقريباً عن مدينة طاغشت مسقط رأس أوغسطين.
- 3- أوغسطين، الاعترافات، نقلها إلى العربية الخوري يوحنا الحلو، بيروت، المطبعة الكاتوليكية، 1962، ص 29.
- 4- المصدر نفسه، ص 33.
- 5- نسبة إلى مؤسسها وزعيمها (ماني ابن فاتك الفارسي) وهي من المذاهب القديمة تندرج تحت ما يسمى بالمذاهب الغنوصية والمانوية هي من المذاهب الثنائية فكل الأشياء في نظرها صدرت من مبدئين اثنين هما (النور والظلمة) للمزيد أنظر تدهوندترتش، دليل اكسفورد للفلسفة، ترجمة نجيب الحصادي المكتب الوطني للبحث والتطوير، طرابلس ليبيا، ط، 2005، ص 866.
- 6- يدعي ماركوس تليوس (106-43 ق.م) وهو فقيه وسياسي وكاتب روماني، له الكثير من المحاورات الفلسفية وكان شديد الإعجاب بالفلسفة اليونانية ولا سيما الفلسفة الرواقية ونظرتها الأخلاقية للمزيد، أنظر الموسوعة الفلسفية المختصرة نقلها عن الانجليزية، فؤاد كمال وآخرون، دار القلم بيروت بدون تاريخ (ص 277)
- 7- اوغسطينوس، المصدر السابق (ص 46)
- 8- المصدر نفسه ص 57
- 9- المصدر نفسه (ص 91)
- 10- علي زيعور، اوغسطينوس مع مقدمات في العقدة المسيحية و الفلسفة الوسيطية، بيروت، دار أقرأ، ط 1، 1983، (ص 127).
- 11- أوغسطينوس، الاعترافات، المصدر السابق، ص 136.
- 12- المصدر نفسه، ص 132.
- 13- من أشهر أباء الكنيسة اللاتينية ولد عام 333م وهو معاصر لأوغسطين كان اسقفاً على مدينة ميلانو الإيطالية.
- 14- أوغسطينوس، الاعترافات، المصدر السابق، ص 165.
- 15- بمعنى تغيير لوني.
- 16- أوغسطينوس، المصدر السابق، ص 165-166.
- 17- زينب الخضير، لاهوت التاريخ عند أوغسطين، القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، ط1، بدون تاريخ، ص 16.

- 18- من أشهر المؤلفات التي كتبها أوغسطين كتبه عام 413م دافع فيه عن المسيحية وانتقد فيه من وصفهم بالمبتدعة والهرطقة وهو عملٌ ضخمٌ جاء في قسمين من اثنتين وعشرين مقالة ويحوي على الكثير من آرائه السياسية والاجتماعية انظر، علي زيعور، أوغسطينوس، المرجع السابق، ص 109.
- 19- المرجع نفسه، ص 133.
- 20- كامل محمد عويضة، أوغسطين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1993م، ص 45.
- 21- أوغسطينوس، الاعترافات، المصدر السابق، ص 13.
- 22- المصدر نفسه، ص 212.
- 23- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، بيروت، دار القلم، (بدون تاريخ) ص 28.
- 24- علي زيعور، أوغسطينوس، المرجع السابق، ص 258.